الأدب الإسلامي ونقده

عند الشيخ أبي الحسن الندوي

بن عيسى بطاهر*

يعدّ الأدب أحد الفنون المهمة التي تسهم في توجيه الثقافة والمعرفة لدى الشعوب، وفي بناء الإنسان الفعال القادر على صناعة التاريخ، والمشاركة بإيجابية وعمق في الدفع الحضاري. ونظراً لهذه الأهمية المنوطة بوظيفة الأدب ربط كثير من الدارسين والمفكرين بين ازدهار الأدب وصحة الأمم وعافيتها، وبين انحراف الأدب ومرض الأمم ودمارها، وذلك لما للأدب من خصائص تتصل بنفوس الناس، وترتبط بروح الأفراد والجماعات، فضلاً عن كونه –وباطراد في جميع العصور– أحد عناصر التربية الضرورية لتوجيه الإنسان نحو الترقي الحضاري.[1]

وقد عرفت الحضارة الإسلامية منذ ميلاد فكرتها الأولى في غار حراء قيمة الكلمة أداةً للتغيير، ومكانة الأدب مفجراً للطاقات، وموجهاً للأفراد والجماعات، فكان الإعلان الأول كلمة تدعو للقراءة والمعرفة ﴿اقْرَأْ﴾، يتبعها كلمة أخرى تدعو للقيام والحركة ﴿قُمْ﴾، ثم كان فيض القرآن بآياته وسوره في ذلك الثوب البلاغي الرائع مادتهم، يقيمون عليه تصوراتهم ويستلهمون منه وجهتهم، ثم كان الحديث النبوي الشريف بياناً للشريعة، ومصدراً للهداية والمعرفة، ومنبعاً للأدب الجميل لا يستغني عنه الأديب المسلم في تكوين فكرته وتحديدها، وبناء رؤيته وتشكيلها.

وفي إطار هذه الحضارة تشكل تراث متميز، وأدب حي عبَّر عن شخصية الأمة وثقافتها، ودافع عبر العصور عن هويتها وعن خصوصيتها حين كانت تبرز في الآفاق من حين لآخر الأخطار والتحديات، وكان سلاحاً قوياً في أيدي المخلصين من أبناء الأمة يردّون به كيد الحاقدين، وتأويل الجاهلين، وتحريف المشككين.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والألسن، جامعة ذمار، اليمن، دكتوراه في البلاغة واللغويات من الجامعة الأردنية، بالأردن 1414هـ/1994م، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

1 مالك بن نبي: شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، 1987، ص110.

ولم يكن هذا الأدب الحي الذي شهده التاريخ الإسلامي وحده سائداً في الساحة الثقافية، فقد كان هناك أدب يناقضه في المبدأ والاتجاه، بعضه يرغب فيه أهل الضلال والبدعة، وبعضه يحبه أهل التكلف والصنعة، وبعضه مؤيد من أهل الرياسة والسلطة، وبعضه ممزوج بأفكار أهل الأهواء والغفلة، مما أدى إلى إضعاف القاعدة الفكرية الداخلية، والقوة الروحية للأمة، وأسهم منذ البداية في ذلك السقوط الحضاري الذي عاشه المسلمون في سنوات الضعف.

وشهد العصر الحديث تحديات كثيرة، وأخطاراً متنوعة بسبب الاستعمار والتمزق والتخلف، وبسبب الصراع الحضاري بين الشرق والغرب. وقد كانت الفرصة سانحة أمام كثير من بلاد العالم الإسلامي للنهضة والإقلاع الحضاري وبخاصة بعد حصولها على استقلالها، ولكن بسبب فقدان الاستعداد النفسي، وغياب الرؤية الحضارية الواضحة، وبتأثير المناهج المستوردة التي سيطرت على الحياة الإسلامية بمستوياتها المختلفة وغير ذلك من الأسباب، لم نشهد أية نهضة حضارية تجلب احتراماً في عالم التمدن المتسارع، حتى قامت جهودٌ إسلامية مخلصة لتعلن رفضها لمبدأ التغريب والبدء في بناء المشروع الحضاري الإسلامي لإعادة الأمة إلى استئناف حياتها الإسلامية الراشدة.

وقد كان للأدب حيز من الاهتمام في العمل الإسلامي، فبذلت جهود لإعادة الأدب إلى دائرة الرؤية الإسلامية في التعبير عن الحياة والكون والإنسان، وظهر مفكرون وأدباء دعوا في أعمالهم إلى ضرورة الاهتمام بالأدب الإسلامي، نذكر منهم الشهيدين: حسن البنا وسيد قطب رحمهما الله والشيخ أبا الحسن الندوي، والأستاذ محمد قطب، ورائد القصة الإسلامية الأديب الراحل نجيب الكيلاني رحمه الله.

ويعد الشيخ أبو الحسن الندوي حفظه الله أحد الرواد الأوائل الذين اهتموا في هذا العصر بالأدب الإسلامي، وقد كان له حضور متميز في مجال الكتابة والنقد والتنظير، وقد توجت جهوده في السنوات الأخيرة بإقامة رابطة عالمية للأدب الإسلامي. وهذا البحث قراءة نقدية سريعة لبعض جوانب فكره في ميدان أسلمة الأدب، مع التناول السريع لبعض آرائه في النقد الإسلامي.

حول الأدب الإسلامي

1- مفهوم الأدب الإسلامي

إن مصطلح الأدب الإسلامي -مذهباً أدبياً- قد استقر وجوده بين الدارسين وتلك بدهية تنطق بها نصوصه العديدة، وبحوثه المتجددة، وأصبح اتجاهاً وحقيقة واقعة.[2] وهو مصطلح ظهر في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي منذ الخمسينيات، وقد حدد مفهومه انطلاقاً من رؤية واضحة فقال: الأدب الطبَعي الجميع هو التعبير البليغ الذي يحرك النفوس، ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد ويبعث في النفس الثقة.[3]

فهذا المفهوم يشمل مجموعة من الخصائص والمقومات الشكلية والقيمية والجمالية التي إذا توافرت في الأدب الإسلامي منحته قوة الإقناع والإمتاع، وأعطته صفة البقاء والخلود. فالأدب من حيث المقومات الشكلية لا بد أن يكون بعيداً عن الصناعة والتكلف، يأخذ من الأشكال أجملها وأقربها إلى الطبيعة الإنسانية السوية، وهو أدب بليغ هدفه توصيل المعنى إلى القلوب في أحسن صورة من الألفاظ: وهو من حيث المقومات القيمية أدب ملتزم برسالة في المجتمع بما يحمل من قيم إيجابية تقوِّم السلوك، وتوسِّع المدارك، وتبعث في النفس الثقة والفاعلية؛ وهو من حيث المقومات الجمالية أدب جميل يوظف الجمال في إبراز الأبعاد القيمية، لأن القيم في الرؤية الإسلامية هي المقياس الأول للجمال.

ويأتي تركيز الشيخ الندوي الشديد على الوظيفة المعرفية والتأثيرية للأدب الإسلامي فيقول: "الأدب الإسلامي في أوسع معانيه هو تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا غير".[4]

ويرى الشيخ الندوي أن عنصري الإخلاص والصدق في الأدب الإسلامي هما اللذان يهبانه هذا البعد الوظيفي لأنهما يمنحانه الروح والقوة والحيوية، ويجعلانه معبراً عن حقيقة أبدية خالدة.[5]

---

[2] د. أحمد محمد حنطور: "مصطلح الأدب الإسلامي بين أيدي الدارسين"، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخامس، سنة 1995م.

[3] أبو الحسن الندوي: نظرات في الأدب الإسالمي، عمان: دار البشير، 1990، ص22.

[4] المرجع نفسه، ص35.

[5] المرجع نفسه، ص36.

2- وظيفة الأدب الإسلامي

إن الأدب بنحو عام رسالة في الحياة، وهو ليس عبثية أو فناً مطلقاً يقصد منه مجرد الفن كما هو رائج في كثير من المذاهب الأدبية الغربية.[6] ونقاد الأدب المنصفون لا ينكرون أبداً قضية الالتزام في الأدب.[7] وإذا نظرنا إلى الأدب الإسلامي وجدناه مرتبطاً برسالة سامية في المجتمع الإسلامي، وبهذه الرسالة يكتسب مكانته وقيمته الحقيقية بوصفه راعياً لقيم الخير في المجتمع، وموجهاً للثقافة النافعة التي تسهم في البناء الحضاري. ومن هنا حرص الشيخ الندوي على بيان هذا البعد الوظيفي للأدب الإسلامي فقال: "حاجتنا حاجة هذا العهد، وحاجة العالم العربي بصفة خاصة، هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة، الذي يحمل رسالة سامية سماوية، إنسانية إسلامية عالمية".[8]

فهذا الأدب الملتزم بالرؤى الإسلامية، الحامل لقيم الحضارة، له وظيفته الخطيرة في المجتمع، لأنه ملتزم بحمل قضايا الفكر والمعرفة والثقافة السليمة، وقيم الخير والعدل وفق ما جاء في الكتاب والسنة لمزجها بقلوب الناس وعقولهم لبناء الفرد المسلم فالمجتمع المسلم.

وهذا الالتزام ليس قيداً على حرية الأديب، كما يعتقد دعاة التحرر في الفن والأدب،[9] بل هو ميزة الأدب الجاد، وروحه التي تهبه خصوصية المنشأ والهدف، كما أن الالتزام –قضية– حقيقية مقررة، وخطة مسلم بها في عالم الفن والأدب.[10]

ويستدل الشيخ الندوي على أهمية هذا البعد الوظيفي للأدب الإسلامي بما تركه أدباؤنا وكتابنا القدماء من أدب حي أسهم في ذلك الانقلاب الحضاري المتميز فقال: "كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، أو يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين، فتشتعل

---

6 تتبلور هذه الآراء في المدرسة الجمالية الغربية (Aestheticism) التي أسسها كروتشه (Benedetto Croce) وفي مدرسة الفن للفن وفي المدرسة الوجودية.

7 نجيب الكيلاني: مدخل إلى الأدب الإسلامي، قطر: كتاب الأمة، الدوحة، 1987م، ص86 وما بعدها.

8 أبو الحسن الندوي: نظرات في الأدب الإسلامي، ص113.

9 نجيب الكيلاني: مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص76.

10 نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987م، ص46.

مواهبهم، ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم، فتنهال عليهم المعاني، وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من القبل فلا تستقر إلا في القلب.[11]

3- الأدب الإسلامي والتسلية

الأدب الهادف والجاد مناف للتسلية الرخيصة، وبخاصة حين تصبح التسلية غاية أولى لقارئ الأدب، الباحث عن المتعة الزائلة قتلاً للوقت، وتسلية للنفس، دون إعطاء القيم الإيجابية في الأدب أيّ اعتبار. وهذا بلا شك مما يبعث السلبية والركود في المجتمع، ويعطل الكثير من الطاقات الحية في الأمة. وقد أشار الشيخ الندوي إلى هذا المعنى فقال: "الأدب ليس أداة تسلية أو إزجاء وقت (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب، وإنما الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة وللتأثير في النفس الإنسانية".[12] فالأدب الإسلامي في نظر الشيخ الندوي ينبغي ألا يكون هدفه الأول تسلية القارئ ومده بالوسائل والمضامين الإمتاعية فقط، بل هو أداة إيجابية لها أثر تغييري في الحياة، لأنه وسيلة من الوسائل المهمة في البناء النفسي والدفع الحضاري، وتغيير النفوس، وتمكينها من تجاوز السلبية والعجز، وبخاصة حين يأخذ الأديب المسلم على عاتقه مسؤولية توجيه الثقافة نحو العمل الجاد، ومد المجتمع بالقيم الإيجابية الحضارية.

ونفي التسلية الرخيصة عن الأدب الإسلامي لا يقتضي بالضرورة القضاء على جانب المتعة فيه، لأن الإمتاع غاية لا يمكن إلغاؤها من الأدب، وإلا فقد تميزه الفني بوصفه أدباً، والقرآن الكريم نفسه أعطى هذا الجانب حقه من الاهتمام، حتى عُدّ الإمتاع الوجداني من الغايات الأساسية التي يهدف إليها الأسلوب القرآني.[13] إن الأدب الإسلامي أدب جاد يجمع بين الإمتاع والإقناع، وتمتزج فيه المتعة بالمنفعة، وتنتفي عنه التسلية المؤذية، لأنه أدب نابع عن الرؤية الإسلامية التي تهدف إلى غرس الإيجابية في الحياة.[14] يقول الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال: "لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول، والذُّويَ والذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة. ما قيمة شرارة تلتهب

---

11 أبو الحسن الندوي: مختارات من أدب العرب، جدة: دار الشروق، ص15.

12 نظرات فيالأدب، ص105.

13 محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ص103 وما بعدها.

14 نجيب الكيلاني، آفاق الأدب الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987م، ص125.

سريعاً وتنطفئ سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج ولا اضطرابا في البحار؟ لا تنهض الأمم إلا بمعجزة، لا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى".[15]

4- الأدب الحي والأدب المزخرف

إن الأدب في تكوينه العام مرتبط بالنفس الإنسانية، لأنه تعبير صادر عن قواها الوجدانية والفكرية، فهو يحيا بحياتها، ويجمد بجمودها، وتارة يكون كالكائن الحي بما فيه من قوة في العاطفة والعقيدة، وتارة يصبح جامداً لا حياة فيه بعد التجرد من إشعاع الروح وعمق التجربة.

وقد اهتم الشيخ الندوي اهتماماً كبيراً في كتاباته بهذا البعد الحيوي في الأدب الإسلامي فقال: "إنني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون، وله ضمير واع، وله نفس مرهفة الحسن، وله عقيدة جازمة، وله هدف معين، يتألم بما يسبب الألم، ويفرح بما يثر السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت جامد، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضيات الجمبازية".[16]

هذا هو الأدب الحي الذي يستطيع أن يبعث في النفوس روحاً جديدة بما يحمل من خبرة صادقة، وأفكار حية، وقيم نافعة؛ أما الأدب الجامد، الذي يسميه الشيخ الأدب المزخرف، فهو أدب فاقد للمنهج السليم، بعد ما التصقت به شروط وصفات وتقاليد أفسدته، وطمست نوره، فلا بد فيها من السجع والصناعة، ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية، ولا بد فيه من تقليد من يُعَدُّ في الطبقة الأولى من الأدباء.[17]

يذهب الشيخ الندوي إلى أن محنة الأدب العربي تكمن في تسلط أصحاب التصنع والتكلف على الأدب، أولئك الذين يتخذونه حرفة وصناعة، وغايتهم الأولى إثبات البراعة في التنميق والتحبير، وإحراز

---

15 أورده أبو الحسن الندوي: نظرات في الأدب الإسلامي، ص106.

16 المرجع نفسه، ص105.

17 المرجع نفسه، ص31.

الشهرة والمنفعة الشخصية، بعد التملق للأشخاص أو الهيئات، وأصبح هذا الأدب السائد بين الناس في هذا العصر كأنه تماثيل وصور لا حياة فيها.[18]

ويستدل الشيخ الندوي على الأدب الإسلامي الحي بما وصل إلينا من كتابات علمية ودينية عن علمائنا القدماء، وقد كتبها أناس لم يحترفوا الأدب ولم يجعلوه صناعة، وقد كان لهذه الكتابات تأثير كبير في الناس على مر العصور، وما زال تأثيرها مستمراً إلى الآن، والسر وراء تأثيرها يكمن في قوتها وجمالها، وكونها كتبت عن عقيدة وعاطفة، هذا إلى جانب تحررها من السجع والبديع ومن التكلف والزخرفة.

ويؤكد الشيخ أن الروح التي تبعث في الأدب الحياة والبقاء والخلود كامنة في صدق التعبير عن العقيدة والعاطفة.[19] فإذا كان الأديب متحلياً بالصدق والإخلاص في التعبير عن فكره وعاطفته، فإن أدبه سيؤدي غايته من التأثير والإقناع، لأن الكلام إذا خرج من القلب كان محله القلب، وهذا هو الأدب الحي الذي يستطيع أن يحرك النفوس ويبعث فيها الثقة والرغبة في العمل الجاد المثمر.

وعن كيفية وصول الأديب المسلم إلى هذا المستوى الراقي من الأدب يقول الشيخ الندوي: "إن الإيمان صفاء النفس، والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء الحس، ولطافة النفس، وعذوبة الروح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة، واقتداراً على التعبير البليغ، فتأتي كتابته كأنه قطعة من نفس صاحبها، وصورة لروحه".[20]

إن الأدب الإسلامي الذي يسهم في التغيير الحضاري هو الأدب الحي الذي يدخل في النفوس فيمنحها القدرة على تجاوز السلبية والعجز، ويكسبها الفاعلية والنشاط والإرادة لتفجير الطاقات المعطلة، وتزويد العقول والقلوب بالأفكار الحية حتى تصل إلى المستوى الذي يؤهلها إلى التغيير الإلهي، قال الله تعالى: ﴿لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

---

18 المرجع نفسه، ص21.

19 المرجع نفسه، ص23.

20 المرجع نفسه، ص23.

5- الأدب الإسلامي وقضايا الحضارة

إن الأدب -لكونه أحد عناصر التربية في المجتمعات المتمدنة- يسهم إسهاماً فعلياً في بناء الحضارات أو يكون سبباً في هدمها، فقد يكون الأدب مقوماً أساسياً في التربية والبناء والتوجيه، ويصبح قوة دافعة للشعوب نحو التغيير وتجاوز المعوقات والسلبيات، وقد يكون على النقيض من ذلك حين ينحرف عن مساره الإيجابي، ويصبح معوَلاً من معاول الهدم، يروج للقيم الهدامة، والأفكار القاتلة، وينخر في الجسم السليم فيصيبه بالشلل؛ والتاريخ يدعم هذه الحقيقة بشواهده الكثيرة، وخاصة تاريخ الحضارة الإسلامية.

والحضارة الإسلامية في أيام عزها مثال يحتذى به في قيم الخير والعدل والموازنة بين الحاجات الروحية والمادية، فقد أعطت الحضارة الإنسانية المفهوم السليم الذي ينبني على فكرة التوحيد، ومساواة البشر أمام الله ، واحترام الإنسان المؤمن الفعال الذي يؤدي بسلوكه وعمله رسالة الحق والخير والجمال.

وقد كان الأدب الإسلامي وجهاً مشرقاً من وجوه الحضارة الإسلامية في أيام ازدهارها وقيادتها للعالم، وذل بمساهمته الحقيقية في توجيه الثقافة وشحذ الهمم، وبعث روح العمل والفعالية بين أبناء الأمة، وكان سلاحاً فعالاً في أيدي الدعاة والمخلصين، وفي بث الدعوة، وقمع المنكر والبدعة. وحين بدأ إشعاع الحضارة الإسلامية بالأفول، رأيتَ الأدب يتجه اتجاهاً سلبياً غلبت عليه الصنعة والنفاق، والشهوة والانحراف، وبدأ يفقد شيئاً فشيئاً قيمته الروحية والاجتماعية التي فيها حياة الأمة بكاملها.

فالأدب الإسلامي -أو الأدب الحي كما يسميه الشيخ الندوي- مرتبط ارتباطاً وثيقاً بازدهار الحضارة ونهضة الأمة، لأنه الروح التي تحيي الجسد وتبعث فيه الحركة والنشاط، وقد نقل الشيخ الندوي هذا المعنى عن الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال الذي قال: "لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغن، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس".[21]

وإذا كان الشيخ الندوي في تناوله لموضوع النهضة الإسلامية وشروطها الموضوعية قد أعطى تطوير العلوم وتنظيمها، وأسلمتها واستقلالها أهمية كبيرة، فإنه على غرار ذلك لا ينسى البعد الحضاري للأدب

---

21 المرجع نفسه، ص106.

وأهميته في البناء الحضاري.[22] فكثيراً ما كان يكرر هذه الجملة: إننا نحتاج إلى أدب ينفخ في نفوسنا حياة جديدة.[23] أي أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى أدب حي يحمل رسالة حضارية تغييرية، تهدف إلى تكوين الفرد المسلم فالمجتمع المسلم، وتغيير القيم وأنماط السلوك السلبية التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم، وذلك بإثارة الرغبة في النفوس للعمل الجاد، وببث الفاعلية المتوقدة لصنع شيء له قيمة في الحياة، وبناء حضارة ترضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتجلب احترام الآخرين.

وقد لفت الشيخ الندوي أنظار المعنيين بالأدب والكتابة ودراسة الأدب وتاريخه إلى ضرورة الاعتناء بهذا الجانب المهم في الأدب، الذي يستطيع أن يغير الاتجاه من السقيم إلى السليم، ومن سيطرة الأهواء والغرائز إلى سيطرة الأخلاق والقيم النبيلة، ومن الاستسلام لكسل والكساد والخمول إلى الحرص على الحركة والنشاط والفاعلية، إذ الخروج من هاذ المأزق الحضاري يقتضي الاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي، ووجود الرؤية الحضارية الواضحة, والبناء النفسي المتكامل، فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعدد.[24]

6- أدب الرّحلات

أولى الشيخ أبو الحسن الندوي عناية خاصة بأدب الرحلات ومارسه كتابة وتنظيراً منذ الخمسينيات محاولاً التجديد فيه شكلاً ومضموناً، وقد وجه جل اهتمامه إلى ربطه بالرؤية الإسلامية، وإدخاله في دائرة الأدب الإسلامي بعد ما لاحظ أن كثيراً من الأدب لا ينطلق من مبادئ واضحة في الفكر والتصور، ولا يعبر بصورة جيدة عن عاطفة الأديب وعقيدته، مما يفقده طابعه الفني الذي يمنحه الحياة والجمال، ويخرجه عن خطه الالتزامي بوصفه تجربة إنسانية تستحق الذكر والتنويه. وآراء الشيخ النقدية في هذا الفن الأدبي تتمحور حول ثلاثة مقاصد.[25]

---

22 أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984م، ص275-276.

23 أبو الحسن الندوي: نظرات في الأدب، ص110.

24 أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمي، ص277.

25 أبو الحسن الندوي: نظرات في الأدب، ص63-67.

أولاً: يركز الشيخ الندوي على أهمية النظرة الشاملة للمجتمع الذي يكتب عنه الرحالة، فقد لاحظ أن كثيراً من كتب الرحلات يغلب عليها الجانب الجغرافي، وتعتني بالآثار والمشاهد أكثر من أي شيء آخر، ولا يتناول في الغالب إلا جانباً من جوانب الحياة يتلاءم مع ذوق الأديب. فإذا كان الرحالة أديباً مثلاً اقتصر على ذكر الأدباء المشهورين وتصوير الحياة الأدبية في تلك البلاد، وإذا كان مؤرخاً اهتم بذكر الجوانب التاريخية وكل ما يمت بصلة إلى ماضي تلك البلاد. وهذا لا يعطي صورة متكاملة عن المجتمع والحياة، والعلاقات وأنماط السلوك السائدة، والعادات والتقاليد وغيرها من الأمور المهمة في أدب الرحلة.

ثانياً: ينبه الشيخ الندوي أيضاً إلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات من قبل الأديب لتبقى المشاعر والانطباعات حية في الذاكرة. لأنه إذا مر عليها زمان ولم تسجل فستفقد حيويتها وصدقها، فالأحداث والمواقف أشبه بالظلال والأمواج لا تدون ولا تبقى في الذهن، ولا يستطيع الأديب أن يستعرضها بدقة وعناية بعد مرور فترة من الزمن، ولا يستطيع أن يستعيد ما شعر به، وما ترك الحادث فيه من أثر نفسي.

ثالثاً: ويؤكد الشيخ الندوي دائماً أهمية ظهور ذات الأديب وشخصيته في أدب الرحلة، فلا بد أن يعكس عاطفته وعقيدته في عمله، لأن هذا العمل إذا تجرد من العاطفة والعقيدة والمشاعر تحول إلى آلة تصوير باردة لا تؤثر في النفس، ولا تصلح للبقاء، وسنقف الآن عند كتابين في أدب الرحلات طبق فيهما الشيخ هذه الآراء وفق رؤيته الإسلامية للأدب وهما كتاب **مذكرات سائح في الشرق العربي**، وكتاب **أسبوعان في المغرب الأقصى**.

أ- مذكرات سائح في الشرق العربي[26]

خرج الشيخ الندوي سنة 1951 في رحلة إلى بلدان المشرق العربي ليدرس أوضاع هذه البلدان الدينية والعلمية والاجتماعية، وليستفيد من تجارب علمائها ورجالاتها، وليعرف ببلاده شبه القارة الهندية وتجربة الدعوة والإصلاح فيها. وقد حرص في هذه الرحلة -كما ذكر-[27] على تسجيل كل حديث، وكل انطباع

---

26 مذكرات سائح في الشرق العربي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م.

27 المرجع نفسه، ص8.

في يومه غالباً، وأن يتحرى الدقة في النقل، والصحة في الرواية، هذا فضلاً عن حرصه على تصوير المجتمع بنظرة متكاملة، وإبراز شخصيته ومشاعره وأفكاره وما يجول في خاطره حول كل حادث وموقف عاشه أثناء الرحلة، وقد تميز هذا الكتاب بجملة من الخصائص الفكرية والأسلوبية تتمثل فيما يأتي:

أولاً: أن قارئ هذه المذكرات يدرك أن كاتبها حريص على رسم صورة متكاملة الجوانب للمجتمع الذي عايشه في تلك المرحلة من حياته. ويستطيع القارئ أن يأخذ فكرة واسعة عن الحياة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وأن يعرف التيارات الثقافية، المستويات الحضارية لتلك المجتمعات المتنوعة، مما يعطي هذا العمل قيمة تاريخية وحضارية مهمة فضلاً عن القيمة الأدبية والفكرية التي اكتسبته طابعه المتميز.

والدارس هذه المذكرات يلاحظ اهتماماً كبيراً بالجوانب الدعوية الأدبية، لعلاقتها المباشرة بشخصية الكاتب، فهو رجل يحمل رسالة فكرية حضارية ويعيش الهم الإسلامي، ويحس ويشعر بآلام المسلمين ومشكلاتهم في هذه البلدان التي زارها، وهو من ثم رجل فكرة ودعوة يريد التعبير عن مشاعره وتجسيد عقيدته بجلاء ووضوح في هذا العمل، وهو الأمر الذي طالما أكده في نظراته النقدية لأدب الرحلات.

ويمكن إجمال القضايا المعروضة في المذكرات هذه في فكرة واحدة وهي أن الشيخ الندوي يتألم للواقع الإسلامي المؤسف بمستوياته المختلفة، فهناك أزمة حضارية في البلاد العربية، والسبب يعود إلى تفسخ في الأخلاق، واستبداد في الحكومات، والاستقطابات الحزبية في السياسة، وانصراف بالكلية عن الدين، وعبادة المادة.[28]

ولا سبيل إلى التحضر إلا بوجود الشعور الديني الصحيح القوي في الشعب، ولا يكون هذا إلا عن طريق الدعوة العامة، والاتصال بالشعب وتربيته الدينية وإيجاد الوعي في طبقاته ثم في الجمع بين العلم الديني والمعارف العصرية.[29]

---

28 المرجع نفسه، ص30.

29 المرجع نفسه، ص30.

ويؤكد الشيخ الندوي أن استعادة روح التحضر إلى المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تكون إلا بالجمع بين العاطفة القوية، والعقل الصحيح،[30] أي بتحقيق شروط الاقتناع التام لقوى النفس المسلمة لتتولد لديها الإرادة الكافية للانطلاق نحو العمل والحركة والإبداع.

ومما يجذب الانتباه في هذه المذكرات اهتمام الشيخ الندوي بموضوع أسلمة الأدب، وضرورة قيام جبهة قوية ضد الأدب المنحرف الذي أثر تأثيراً سيئاً في الأمة وأسهم في إفساد الطبائع والأخلاق، وشارك مشاركة أكيدة في تردِّي الأمة الحضاري.

ثانياً: تميز أسلوب الكاتب في هذه المذكرات بوضوح العبارة، وسلامة الألفاظ، ودقة المعاني. فالكاتب كما يظهر يحب الاسترسال في الكتابة مع البعد عن التكلف والتصنع مما أكسب كتابه أسلوباً يجمع بين الفائدة والمتعة، وقد جاء الكتاب وكأنه قطعة من مؤلفه، فالأسلوب هو الرجل كما قرر النقاد، ويكفيك أن تقرا هذا الكتاب لتعرف جوانب كثيرة من شخصية كاتبه، ومنهجه في الكتابة الأدبية.

ب- أسبوعان في المغرب الأقصى

قام الشيخ أبو الحسن الندوي برحلة إلى المغرب الأقصى سنة 1976م لحضور مؤتمر حول الجامعات الإسلامية، وكان أن قضى أياماً زار خلالها مناطق مختلفة من هذا البلد الجميل، واطلع على آثاره ومكتباتهن وتعرف على شعبه وعلمائه، وكتب هذه المذكرات معبراً فيها عن مشاعره وانطباعاته بأسلوب جميل بليغ.

يغلب على هذه المذكرات الطابع التاريخي، غير أن كاتبها حرص على تسجيل انطباعاته عند كل مشهد أو موقف يتعرض له، فجاء الكتاب مصوراً لجوانب من الحياة بمستوياتها المختلفة في هذا البلد الإسلامي، ومعبراً عن شخصية الكاتب الذي ينطلق دائماً من فكره وعقيدته وعاطفته الإسلامية حين يتعامل مع الأشخاص أو الأفكار أو الأشياء .

ويرى كاتب هذه المذكرات أن أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ والعوز وأشد ما يقاسيه من أزمات، هو الضعف الإيماني والفساد الخلقي والتزعزع العقدي، يقول: "ألقِ نظرة على العالم الإسلامي وانظر

[30] المرجع نفسه، ص48.

ماذا يعوزه، إنه غني بكل شيء، بعدد أفراده، وبوسائله وبثرواته، وبثقافته وبذكائه، ولكنه على الرغم من ذلك كله لا يملك ثقلاً في الميزان العالمي، لا دوراً مؤثراً في اتجاهات العالم أوضاعه وحوادثه، والأزمة الإيمانية هي سبب هذا التراجع الحضاري".[31]

ويدعو الشيخ الندوي إلى ضرورة التمسك بقيم الحضارة الإسلامية، وطابع الأمة الخاص، والاستفادة من الحضارة الغربية في مجالاتها الإيجابية وتجاربها المفيدة التي تتفق مع تعاليم الإسلام، كي يعود للأمة عزّها ومكانتها في العالم.

ويبقى أن نشير إلى أن هذه المذكرات كتبت بأسلوب جميل مؤثر، على الرغم من ترجمتها من الأردية إلى العربية.

في النقد الأدبي

1- التأصيل الإسلامي للنقد

قبل الحديث عن آراء الشيخ الندوي النقدية التي شملت موضوعات أدبية متنوعة، لا بد من الحديث عن أهمية النقد في ظل المفهوم الإسلامي الشامل، وهي أهمية لها خصوصيتها ومذاقها المتميز من زاوية أن الإسلامي وضع مقاييس لعملية الإبداع، كما أن وضع مقاييس لتقويم هذه العملية وفق التصور العام الذي تجتمع فيه قيم الخير والحق والجمال كما هو مفصل في كتاب الله، وكما بينته السنة النبوية الشريفة.

ولا نريد أن نقف عند تفسير المفاهيم الكثيرة حول كلمة نقد، وهل النقد علم أم فن؟ ويكفينا القول إن النقد وسيلة تقويمية للأدب والفن؛ وسواء قام هذا التقويم على قواعد علمية أو على مجرد الذوق والتأثر والانفعال، فإن الغاية من النقد هي التقويم الإيجابي لعلمية الإبداع الأدبي، لأن العلاقة بين الأدب والنقد علاقة تكاملية، يوجد كل واحد منهما الآخر، ويسهم كل منهما في تطوير الآخر، ومع خصوصية كل من الأدب والنقد في الوسائل المستخدمة إلا أن الغايات والأهداف قد تكون واحدة عند خطاب المتلقي،

---

31 اسبوعان في المغرب الأقصى، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988م.

وبخاصة عند أولئك الذين يعدون النقد فناً يساهم في تربية الذوق السليم لدى الإنسان وتنميته، والأخذ بيده نحو معرفة عناصر الكمال والجمال في فنون الأدب على اختلاف أشكالها.

والنقد في أيامنا هذه أصبحت له قواعده ومناهجه الخاصة، وأصبح له جمهوره العريض. وقد تفنن الغربيون في تطوير نظرياته حتى أصبح ما أنجزوه في ذلك مثلاً أعلى عند بعض النقاد العرب والمسلمين يستمدون منه آراءهم، ويقلدونه حذو الحافر بالحافر، مما ولد ظواهر نقدية غريبة في الساحة الثقافية.

وقد كان تلقيب هؤلاء النقاد بلقطاء الموائد الغربية عند بعض الدارسين[32] نتيجة للأخطار التي يتعرض لها الأدب الإسلامي بفعل الأفكار التخريبية التي يروجها دعاة التغريب والتي ظهرت ملامحها منذ بدايات هذا القرن عند أدباء وكتاب من أمثال طه حسين وسلامة موسى ولويس عوض وغيرهم.

إن الآثار السلبية لمدارس النقد الغربي في النقد العربي الإسلامي أمر جلي يلاحظه كل ممارس ومتابع لأحوال الحركة النقدية في مسيرتها المعاصرة، وقد أشار إلى هذه الإشكالية بعض النقاد منهم سيد قطب ونجيب الكيلاني رحمهما الله، وقد تنبه أيضاً إلى ذلك الشيخ الندوي منذ وقت مبكر حين دعا دعوة صريحة إلى ضرورة التحرر من رق الفلسفات الغربية، والحضارة العصرية ونظرياتها غير الدينية.[33]

وما تنبغي الإشارة إليه أن النقد الغربي في عمومه أصبح لا يقيم وزناً للقيم الخلقية في الفن والأدب، حيث أن الاهتمام بالقيم الجمالية سيطر على أغلب الرؤى النقدية، ولذلك أصبحت المعايير الخلقية والدينية والمضامين الفكرية، غير ذات مغزى للعمل الفني، وأصبحت مهمة الناقد هي تفسير الأشكال الأدبية بالدرجة الأولى، وليس الحكم على المضمون بالجودة أو الرداءة، ومثل هذه الأحكام النقدية التي تأثر بها الكثير من أدبائنا ونقادنا، وبخاصة عند دعاة الحداثة بمفهومها التغريبي كما هو رائج هذه الأيام في أسواق الدعاية والإعلام، قد ظهر خطرها الجسيم على الفكر الإسلامي، وعلى الأدب الجاد، وعلى مستقبل الثقافة الذاتية التي هي الحصن الحصين الحافظ لهويتنا الإسلامية ووجودنا الحضاري.

---

32 نجيب الكيلاني: آفاق الأدب الإسلامي، ص87.

33 واضح الندوي: أدب الصحوة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م، ص77.

وقد ظهرت مثلُ هذه الدعوات النقدية الرامية إلى استبعاد القيم الخلقية عند طه حسين حين قال: "الكلام لا يكون أدباً حتى يكون فيه هذا الجمال الذي تجده فيما تنتجه الفنون الجميلة الأخرى، وليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون، ليكن موضوعه جميلاً أو قبيحاً، محبباً أو بغيضاً، فليس يعنيني من الأدب إلا ما يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من الشعور بالجمال، فالجمال مقياس أساسي للحكم على الأدب، وحيثما وجد الجمال في الكلام كان الأدب، وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون".[34]

والمعايير الجمالية التي ينطلق منها النقاد الغربيون ومن سار في فلكهم من نقادنا المعاصرين في فهم الأعمال الأدبية وتذوقها معايير قلقة لا تثبت على مبدأ، ولا يمكن الاتفاق عليها دون الرجوع إلى ثوابت فكرية، إذ للجمال مقاييس مختلفة تحددها الديانات الإلهية، والفلسفات البشرية، والثقافات المتباينة. وعلى هذا الأساس من التذوق الجمالي تنشأ الأفكار كما يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي، وتتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة من الحضارات بطابع مميز.[35]

فالجمال لا بد له من مرجعية، وتتمثل مثل هذه المرجعية أساساً في قاعدة فكرية محددة. ومع أن الجمال أحد العناصر التي يقوم عليها الأدب، إلا أنه أيضاً أحد مرتكزات العملية النقدية التي تساعد على فهم النصوص الأدبية وتفسيرها، ولكن يبقى الجمال عنصراً حيوياً من عناصر أخرى كثيرة لها حضورها الدائم في عملية الإبداع الأدبي وما قد يثار حولها من أحكام نقدية.

إن الحاجة إلى تأصيل النقد وفق هذه المعطيات أصبحت ضرورة ملحة في هذه الأيام، وذلك لبلورة نظرية نقدية إسلامية تقف في وجه النظريات الغربية، وتسهم في تقويم الأدب المنحرف المنتشر في الساحة الفنية والأدبية، وتواكب مسيرة الأدب الإسلامي الذي خطا خطوات راسخة في الربع الأخير من هذا القرن. ومهما كانت قلة مصادر النقد الأدبي الإسلامي فإنها بلا شك ستسهم –بتوافرها في قادم الأيام– في إزالة

---

34 نقلاً عن محمود السمرة وعبد الله الشحام: مدخل إلى النقد الأدبي، مسقط: وزارة التربية والتعليم العمانية، 1985م، ص336.

35 مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دمشق: دار الفكر، 1984م، ص82.

الشبهات المترسبة في أذهان كثر من أبناء الأمة الإسلامية فتتضح الصورة الصافية للأدب الجاد، والنقد الملتزم.

وعلى الرغم من الجهود القيمة التي قدمها بعض المفكرين المعاصرين مثل سيد قطب، وأبي الحسن الندوي، ونجيب الكيلاني، وعماد الدين خليل وغيرهم، لتأصيل خصائص المذهب الإسلامي في الأدب والنقد، إلا أن الطريق ما زال طويلاً، وهذا ما أشار إليه الشيخ الندوي في بعض كتبه حين دعا في عمق وإيجاز إلى النقد الإيجابي الذي ينبغي أن يحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من أفكار المسشترقين وغيرهم من أصحاب النظريات الغربية، قال: "أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية، وأبحاث عمقية حول المواضيع الإسلامية مع الإحالة إلى المصادر بضبط وإتقان، والفهارس المفصلة المفيدة المتنوعة، (وذلك كله ممّا يعد من خصائص المستشرقين)، والإفادة من مواد لم تستخدم بعد، وكتب ومظان لا يتبادر إليها الذهن، وليست في صميم الموضوع ولا من التاريخ الرسمي الذي يدور حول البلاط والأسر الحاكمة والحروب والحوادث الجسيمة، وكل ذلك مع تحر للدقة والوجازة والبعد عن التنميق والاستطراد، وبين العمل العلمي وهو المحاسبة العلمية في أسلوب علمي نزيه، وكلام وقور رزين، ولفظ موزون، بعيد عن التهكم والتنكيت، والتجني والافتراض، فإن كل ذلك يفقد النقد قيمته العلمية ووقعه النفسي، وبدون الجمع بين هذا وذاك لا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير المسشترقين المسمومة، وسيطرتهم العلمية".[36]

فبمثل هذا العمل الإيجابي الجاد الذي يحرص الشيخ على أن يتبناه أهل الاختصاص، يمكن تأصيل الفن الإسلامي بعامة، وبلورة رؤية نقدية إسلامية تعيد للنقد أثره الإيجابي في الحياة، وتزيل الغشاوة والاضطراب اللذين أحدثهما النقد الغربي بمدارسه المتباينة، وبأفكار رواده المتناقضة، وبآراء مستشرقيه المشوّشة. فمنطق الفكرة الإسلامية في ميدان الفنون قائم على أسس التصور الإسلامي ومقوماته حول الله والكون والإنسان، ولذلك وجد التميز الطبيعي للفن الإسلامي الذي لا يعرف سوى الإيجابية والفاعلية في الحياة، وينأى عن العبث والفوضوية والعدمية والإفلاس وما إلى ذلك.

---

[36] الإسلاميات في كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م، ص21-22.

فالفن الإسلامي -كما أصله الدكتور عماد الدين خليل- يأبى الانحراف ممثلاً في تأليه الإنسان (كلاسيكياً)، وإغراقه الذاتي الأناني (رومانسياً)، وتمجيد لحظات الضعف البشري (واقعاً)، تصوير الانحراف الفكري أو النفسي أو الأخلاقي (وجودياً)، فليس ثمة عبث ولا جدوى كما يرى ألبرت كامو، وليس ثمة لا معقولية للحياة والوجود كما يرى كافكا، وليس ثمة حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى سارتر، ذلك أن الفن الإسلامي يستمد تجاربه الباطنة من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، فللوجود غاية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:115)، ولكدح الإنسان جدوى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:6)، وللحياة معقولية لأنها صدرت عن إرادة الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.[37]

2- وظيفة النقد الإسلامي

إن النقد في الرؤية الإسلامية الشاملة رسالة تعليمية وتوجيهية،[38] وهو شريك الأدب والفن بنحو عام في بناء الذوق السليم وتربيته لدى الناس، وتزويدهم بالغذاء الفكري والروحي، وإشراكهم في المتعة النظيفة، وإدخالهم في عالم الأفكار الموجهة للطاقات نحو الخير في المجتمع، والمفجرة للقوى المؤمنة برسالة الحق والخير والجمال، في سبيل تأدية وظيفتها الحضارية الإيمانية في زمن سيطرت فيه الفلسفات المادية، والمدنيات الوضعية.

فالنقد في الرؤية الإسلامية نقد ملتزم، وهذا الالتزام نابع من تصور الناقد المسلم وثقافته وتميزه الحضاري. والنقد ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة يُلجَؤُ إليها لتقويم الأدب والفن وجعلهما في خدمة الرسالة الإلهية. والنقد الإسلامي الملتزم يسعى -كالأدب الإسلامي- إلى أن تسود الإيجابية والفاعلية في الحياة، ويعمل على تقويم السلوك الإنساني وفق التصور الإسلامي، ومن هنا يأتي تميز المفهوم الإسلامي من المفاهيم النقدية الأخرى.[39]

---

37 عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984م، ص42.

38 نجيب الكيلاني: آفاق الأدب الإسلامي، ص85.

39 بن عيسى بطاهر: "نجيب الكيلاني والرؤية النقدية الإسلامية"، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 9-10 (عدد مزدوج)، السنة 3.

ومع وضوح الرؤية النقدية الإسلامية في مبادئها النظرية العامة، إلا أن النقد التطبيقي الإسلامي الذي يتناول الأعمال الأدبية المتنوعة بهذه الرؤية هو الذي ينبغي أن يتحقق سريعاً وبقوة وكفاءة لإزالة الشبهات المطروحة في الطريق، وتوضيح معالم النظرية النقدية الإسلامية، وكشف العيوب والمزالق التي تقدمها النظريات الغربية، بالمنهج العلمي المؤصل، وهذا ما أشار إليه الشيخ الندوي حين دعا إلى النقد الإسلامي العلمي الذي يحسن التعامل مع النظريات الغربية الخطيرة على العقيدة والسلوك، قال: "لقد مضى علينا قرن كامل وأوربا تغتصب شبابنا وعقولنا، وتنبت في عقولنا الشك والإلحاد والنفاق، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية، والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية، ونحن معرضون عن مقاومتها، معتمدون على ما عندنا من تراث، مضربون عن الإنتاج الجديد، معرضون عن فلسفتها ونظمها ومحاسبتها محاسبة علمية، ونقدها وتشريحها كتشريح الأطباء الجراحين، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة، وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة، حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة، وملك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيل لا يؤمن بمبادئ الإسلام وعقيدته.[40]

وفضلاً عما ذكره الشيخ الندوي عن وظيفة النقد الإسلامي المنتظرة منه، فإن الرسالة الكبرى هي تصحيح الخطأ الذي وقع فيها النقد الحديث حين تحول في كثير من المواقف إلى نوع مقيت من الدعاية والإعلام، وأصبح ميداناً للجدال المذموم، يبيح تشويه القيم، وانحراف السلوك. وقد غلبت عليه هذه الصفات السلبية حتى ضاع الكثير من القيم الجمالية والأخلاقية من جرّاء الصداقات والتشرذم، وسيطرة القيم المادية في مجالات الأدب المختلفة وبخاصة في السينما والمسرح.[41]

3– صفات الناقد المسلم

ذكر في السابق أن النقد الإسلامي رسالة تعليمية وتوجيهية، وهو في تكامله مع الأدب الإسلامي ضرورة حياتية في المجتمع الإسلامي، فهما مثل الروافد المائية النظيفة التي تمد النهر بالغذاء والماء والاستمرارية. ولتحقيق هذه الغاية السامية لا بد من وجود الأديب المسلم بالدرجة الأولى، ثم الناقد الأمين الذي يستطيع

---

40 الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ص80.

41 نجيب الكيلاني: آفاق الأدب الإسلامي، ص83.

أن يقوم بواجبه، ويؤدي وظيفته حارساً لقيم المجتمع المسلم، وذلك بتمسكه بالمبادئ الأخلاقية التي يجد شذاها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويذوق طعمها الطيب في حضارة الأجداد، وتقديمه للرؤى الإيمانية المقومة للسلوك المعوج، ومنح الإنسان التوازن الروحي والمادي، والتصور الصحيح عن حقيقة وجوده ومهمته في الحياة.

ولْنتساءل: ما الشروط التي من شأنها إيجاد هذا النوع من النقاد، وتشكيل هذه الرؤية الإيجابية لديهم؟ وهذا هو الجانب الذي نبه إليه الشيخ الندوي في بعض كتبه، إذ حدّد شروطاً واضحة لناقد الأدب تجمع بين الخصائص الذاتية والمهارات الموضوعية. فالناقد الأدبي في حاجة إلى الشجاعة والصبر والاحتمال، فضلاً عن رحابة الصدر، وسعة النظر. وفضلاً عن ذلك كله ينبغي ألّا يكون ضيق التفكير جامداً متعصباً لفهمه للأدب متعصباً لبلدٍ أو لطبقة أو لعصر، بل يجب أن يكون حر التفكير، واسع الأفق، بعيد النظر، متطلعاً إلى الدراسة والتجربة، واسع الاطلاع على الكنوز القديمة.[42]

ومثل هذه الصفات التي يركز عليها الشيخ الندوي في غاية الأهمية في النقد الإسلامي، ولعل الشيخ – في حدود علمنا– هو أول من أشار إلى هذه الصفات الجامعة بين الاستعدادات الذاتية –مثل الشجاعة والصبر ورحابة الصدر– والموضوعية العلمية مثل سعة الاطلاع، وحرية التفكير، وعدم التعصب، والتجربة، وهي صفات من شأنها –إن توافرت في ناقد موهوب– بلورة رؤية نقدية سليمة في بناء الأدب وتطويره، وتشكيل الذوق السليم لدى المتلقِّي، وذلك بمده بما يحتاج من قيم جمالية وفكرية وأخلاقية.

وقد جرت العادة عند نقاد الأدب –كما هو شائع بين الدارسين– في التركيز على الصفات المتعلقة بعملية النقد، وذلك بالإشارة إلى التجرد التام من الالتزام، والتعامل مع العمل الأدبي في شكله بالدرجة الأولى، ثم مضمونه، دون أن يكون للناقد أي أثر في فهم هذا المضمون وتوجيهه وفق المبادئ التي يؤمن بها، إذ الالتزام –كما يزعمون– يقيد حرية الأديب والناقد على حد سواء.

وإيمان الشيخ العميق برسالة الناقد المسلم يندرج ضمن إيمانه بالرسالة الكبرى التي تنتظر المسلم في الحياة، وهي رسالة الدعوة إلى الله التي نجد صداها في جل كتابات الشيخ، فقد ملأت قلبه وروحه، وأخذت

---

42 نظرات في الأدب، ص34-35.

مساحة كبيرة من فكره وعقله. فكثيراً ما عبر عن الحاجة إلى رجال ينقطعون إلى الدعوة، ويقفون لها علمهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقداً، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون.[43]

4- النقدُ وسيلة وليس غاية

إن إزالة اللبس والخلط اللذين قد يقع فيهما كثير من دارسي الأدب والنقد في تحديد هوية فن أو علم من حيث هو وسيلة أو غاية، قضية ذات أهمية كبيرة، وخاصة في الرؤية الإسلامية التي تفرق في نظرتها المطردة بين الوسائل والغايات، وتَعُدّ التفريق بينهما ضرورياً ومهماً منذ البداية لوجود الضوابط الشرعية والعقدية التي تُعْنَى بهذا الأمر عند الحديث عن أية حركة أو سلوك إنساني في الحياة. ولذلك كان من واجب الأدباء والنقاد والمفكرين المسلمين تحديد هوية النقد الإسلامي بعَّه وسيلة فنية وعلمية يُلجأ إليها لأداء غايات سامية في المجتمع، ويردون بذلك على أولئك الداعين إلى النقد غاية في حد ذاته، واعتباره فناً من الفنون التي يأتي التعبير عنها بحرية مطلقة لتكون إحدى غايات الإبداع.

وقد أشار الشيخ الندوي -وهو الأديب المسلم، والناقد الملتزم- إلى هذه القضية معتبراً أن الفنون جميعها وسائل ينبغي أن يكون هدفها بعث الحياة والروح المتجددة في النفوس الخامدة، والقلوب الجامدة، وهي غاية حضارية تميز رغبة الشيخ وطموحه الغامر بالتفاؤل، الحريص دائماً على إعادة الأمة الإسلامية إلى مركز القيادة والسيادة كما ذكر في كتابه **الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة**، فقد قال بجلاء ووضوح: "الحقيقة أن الأدب والشعر، والفنون الجميلة، والحكمة والفلسفة، والتأليف والتصنيف، ليس من وراء كل ذلك إلا غرض واحد، وهو أن تتولد في صاحبه حياة جديدة، وإيمان جديد، وبالتالي في الأمة الإسلامية التي هو عضو فيها، والمجتمع الذي هو جزء منه".[44]

وتُعَدُّ نظرية "الفن للفن" الرائجة في النقد الغربي المعاصر من أبرز النظريات التي تجعل الإبداع الفني والنقد مستقلين عن الغايات العلمية، والقيم الخلقية، ولذلك قال كروتشه Croce: "إن القيم الأخلاقية

---

43 واضح الندوي: أدب الصحوة الإسلامية، ص77.

44 الطريق إلى السعادة القيادة، بيروت: ط33، مؤسسة الرسالة، 1988م، ص143.

أيضاً يجب ألا تكون لها أهمية عند تقويمنا للعمل الفني وتذوقنا له، فنحن في نقدنا للعمل الفني لا نعيب على الموضوع ذاته، بل الطريقة التي يعالج بها الكاتب ذلك الموضوع، وإذا كان التعبير الفني كاملاً فلا يهمُّنا الموضوع".[45]

فالفن عندهم ليس له غاية، ولا اعتبار بعد ذلك للقيم الأخلاقية والاجتماعية والعملية إذا كان الهدف هو التقويم الصحيح للعمل الفني، وهذا مخالف تماماً للنظرية النقدية الإسلامية التي تجعل الفنون والآداب والأبحاث النقدية وسائل في خدمة الأفكار والتصورات والمبادئ الدينية والأخلاقية.

5- القيم وأثرها في النقد الإسلامي

عند الحديث عن القيم ومسألة حضورها في النقد بنحو عام، وفي النقد الإسلامي على وجه الخصوص، لا بد من الإشارة إلى أن هذا الموضوع له وجود قوي في الأفكار والفلسفات المتعلقة بتطور المجتمعات عند كثير من المفكرين الغربيين والمسلمين، ذلك أن قضية القيم ذات علاقة مباشرة بالمجالات الروحية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وغيرها من مجالات الحياة الحيوية. ولا نريد في هذا المقام التفصيل في هذا الموضوع، إذ نحن ملتزمون بالحديث عن نظرية النقد الإسلامية كما جاءت ملامحها في كتابات الشيخ الندوي، ولكن نشير إلى أن الإشكالية التي يعرض لها بعض المفكرين الغربيين خاصة، والمتمثلة في وحدة منظومة الحضارة الغربية، وأنه لا يمكن رفض فكرها المادي وقيمها الخلقية النفعية والأخذ بتقنيتها العلمية فقط، وأنه إذا أراد المسلمون التقدم العلمي والصناعي من منظومة الحضارة الغربية، فلا بد لهم من الانخلاع عن شخصيتهم الحضارية، وقيمهم الروحية والخلقية، والاندماج كلياً في بوتقة الحضارة الغربية، إذ ليس بإمكانهم القيام بعملية انتقائية، لأن غياب القيم التي ولدت العلم والصناعة المتقدمة سيحول دون الإنجاز المطلوب.[46]

وفي مجال النقد النظري رفض علماء اجتماع كبار منهم ماكس فيبر فكرة وجود علاقة مباشرة بين البنية الاقتصادية التحتية والبنية الثقافية الفوقية، وليس هذا فحسب بل رفض فكرة وجوه هذه العلاقة. وهو يشير

---

45 محمود السمرة وعبد الله الشحام: مدخل إلى النقد الأدبي، ص317.

46 أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظوور تاريخي، الدوحة: كتاب الأمة، ص52.

إلى أن الطبيعة الوراثية للمؤسسات السياسية الإسلامية هي التي أعاقت ظهور المقدمات الضرورية للرأسمالية، وبالأخص القانون العقلاني، وسوق العمالة الحرة، والمدن المستقلة، والاقتصاد النقدي، والطبيعة البرجوازية.[47]

فالقيم الإسلامية -في نظر فيبر وغيره- هي المعوقات الأساسية للنمو الحضاري في البلاد الإسلامية، وخاصة في الجوانب المادية والاقتصادية، وهذا أمر يرفضه الواقع التاريخي للأمة الإسلامية، وترفضه تجارب العصر الحاضر، عند بعض الدول كاليابان ودول شرق آسيا الناهضة، وهي متمسكة بقيمها الأخلاقية والثقافية، ولعل الانفصام بين الأمة والقيم الإسلامية هو أبرز عوامل التخلف كما يرى المفكرون المسلمون المنصفون،[48] ومنهم الشيخ الندوي الذي تناول هذا الموضوع في جل كتاباته، وما من مناسبة أو حديث إلا وتجد له دفاعاً قوياً عن القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية التي هي جوهر المسلم وشخصيته وتميّزه الحضاري.

يقول الشيخ الندوي عن أثر النظام التعليمي الغربي بمناهجه المضللة، وأفكاره المقصية للقيم الإيجابية، وقد طُبّق في الأقطار الإسلامية: "قد اتفقت كلمة العقلاء وأهل التجربة، على أن خسارة الأمة والبلاد في هذا النظام التعليمي، وفي هذه المعاهد ودور التعليم الحديث كانت أكبر من ربحها، فقد استنفد دعاة التعليم العصري الحديث جهودهم وأموال المسلمين في إنشاء هذه المدارس وإقامتها، واستخلصوا لها أفلاذ أكباد المسلمين وخيرة شبابهم، فكان غاية ذلك بعد مدة قليلة فوضى فكرية هائلة، واضطراب وتناقض في الأفكار والآراء، وشك وارتياب في الدين واستخفاف بفرائضه وواجباته، وثورة على الآداب والأخلاق، وضعف وانحطاط في الأخلاق والسيرة، وتقليد للأجانب في القشور والظواهر".[49]

ومسألة المناهج التربوية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنقد ووظيفته الضرورية في تمحيص المواد، واختبار النصوص، وبلورة المفاهيم وتقويمها وفق المنهج الإسلامي، ونقدها بميزان القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية المشكلة لثقافة الأمة. وهذا ما جعل الشيخ الندوي يشير إلى ضرورة وضع مناهج للتعليم الإسلامي تقوم على

---

47 المرجع نفسه، ص52.

48 المرجع نفسه، ص53.

49 نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط5، 1978م، ص9.

النقد الإسلامي للعلوم والكتب الذي شاد بنيانه علماء المسلمين، ويجب أن تدوّن هذه العلوم من جديد تدويناً إسلامياً، وتؤلف فيها كتب مبتكرة، وتشبع بالروح الدينية، وتستخرج منها نتائج لا تعارض الدين.[50]

ويقول عن وظيفة النقد المؤصل في التربية والتعليم: "والحاصل أننا في البلاد الإسلامية في حاجة ملحة إلى نظام تعليمي إسلامي في الروح والوضع، والسبك والترتيب، لا يخلو كتاب من الكتب التي تعلم مبادئ اللغة إلى آخر كتاب يدرس في العلوم الطبيعية أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان، هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي، ويكتب بقلم مسلم".[51]

وحين تحدث عن الإسلام والحضارة الإنسانية دعا إلى القيام بدراسة نقدية عميقة لتاريخ الشعوب والأمم والبلاد والمجتمعات، وذلك لمعرفة خصائص الحضارة الإسلامية، للاهتداء بها في تغيير العقيدة وإصلاحها، والقضاء على آثار الجاهلية والفلسفات والوثنية والتقاليد الموروثة، وتحويل تيارات الفكر من وجهة إلى وجهة، والتغيير الثوري في القيم والمثل.[52]

أما عن الوظيفة المنتظرة من الأمة الإسلامية للتأثير في الحضارة الإنسانية وتوجيهها اليوم فلن يتحقق إلا بالإيمان العميق بالشخصية المميزة للحضارة الإسلامية، ورسالتها المستمدة من الهداية الربانية التي جاء بها الوحي، والتعاليم النبوية المستفادة من السنة، ثم بالابتعاد عن قيم الحضارة الغربية التي تتحكم فيها المادية، ويسود في روحها العداء للدين، والثورة على الأخلاق والقيم.[53]

ثم يستشهد بموقف الشاعر الإسلامي الكبير العلامة محمد إقبال من الحضارة الغربية حيث قال: "إن روح هذه المدنية ما عادت عفيفة طاهرة".[54]

ولن تتحقق هذه الوظيفة أو المهمة إلا بالقضاء على الأزمة الروحية والأخلاقية داخل جسم الأمة الإسلامية، وقد عبر عن ذلك في كتابه **ربانية لا رهبانية** حيث قال: "انظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى

---

50 نحو التربية الإسلامية الحرة، ص10-11.

51 المرجع نفسه، ص11.

52 أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987م، ص65.

53 المرجع نفسه، ص85.

54 المرجع نفسه، ص75.

الله والربانية، وتزكية النفوس من زمان، وندر فيها وجود الدعاة إلى الله، وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن، بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها، أو بفعل عوامل أخرى، إنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم، ولا التعمق في التفكير، ولا فضل من ذكاء، ولا غنى من أدب، ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة، ولا نعمة، من استقلال، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها... ولا علاج لكل ذلك إلا في التزكية النبوية التي نطق بها القرآن، وبعث لها الرسول، وفي الربانية التي طولب بها العلماء[55] ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: 79).

إن اهتمام الشيخ الندوي بالقيم الأخلاقية والمبادئ الإسلامية لكونها تحمل أبعاداً واسعة في حياة الفرد المسلم بالدرجة الأولى، وفي حياة الأمة الإسلامية الشاهدة على الناس بحضارتها، وبقيمها ومبادئها الطاهرة، ثم في حياة الإنسانية المتعطشة إلى القيم الروحية، والمثل والأخلاق، وإلى المبادئ التي تساهم في تقويم البناء المتصدع في صرح الحضارة الحديثة.

ويمتد هذا الاهتمام ليشمل قضايا الأدب والنقد، وهما نشاطان لا ينفصلان عن نشاط المسلم وحركته في الحياة، فالأدب تعبير عن الحياة والشعور والوجدان والأفكار والتصورات والقيم والمبادئ، والنقد هو تقويم الأدب وتوجيهه فنياً وجمالياً وفكرياً وخلقياً نحو التطور والبناء وأداء الغاية المنشودة منه في الحياة. وكما أن الأدب لا يمكن تجريده من القيم والمثل والمبادئ التي يؤمن بها الأديب سواء كان هذا الأدب إسلامياً أو غير ذلك من الآداب العالمية، فإن النقد لا يمكن تجريده من القيم والأخلاق العملية، بدعوى الموضوعية والحرية، وبحجة أن الناقد فنّان وظيفته الأساسية هي البحث عن الجمال المتجسد في الأشكال الفنية للأعمال الأدبية، أما نقد المضمون فليس من وظيفة النقد في شيء ما دام الجمال ماثلاً في الشكل وطريقة التعبير، كما يزعم أصحاب هذا الموقف.

ولعل اهتمام الشيخ الندوي بالأبعاد القيمية في سلوك الفرد المسلم، وفي فاعلية المجتمع الإسلامي ونشاطه ومساهماته في المد الحضاري، هو الحكم العام الذي ينبغي أن ينسحب على حركة المسلم في نشاطه

---

55 ربانية لا رهبانية، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987م، ص14-15.

الإيجابي في الحياة؛ وممارستُه العملية النقدية والفنية هي من النشاطات الضرورية التي تمنح البقاء والاستمرارية والفاعلية للثقافة الإسلامية،[56] وهي عمل شاق يحتاج إلى القدرة الفنية، وقوة الشخصية لدى الناقد، فضلاً عن الإيمان العميق بالمبادئ والقيم والتصورات الإسلامية التي لا بد أن يكون لها حضور قوي يمنح النقدَ الإسلامي تميّزه وأصالتَه.

وتتجلى رؤية الشيخ في هذه القضية في المبدأ الواضح الذي يرى فيه أن الإيمان وصفاء النفس، والاشتغال بالله، والعزوف عن الشهوات، يمنح صاحبه صفاء حي، ولطافة نفس، وعذوبة روح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة، واقتداراً على التعبير البليغ،[57] أي أن القيم الروحية والأخلاقية يحتاجها الأدب الجاد كما يحتاجها النقد الهادف السليم، لحمل الرسالة السماوية السامية، وهي رسالة الإسلام إلى الإنسانية.

وينبّه الشيخ إلى تلك العناصر المهمة التي يجب أن تشغل بال النقاد دائماً وهي أساس المبادئ الخلقية فيقول: "إن أهم عناصر الأدب الإخلاص والصدق، وهما اللذان ظل يتغافل عنهما معظم نقاد الأدب، واللذان يهبان الأدب روحاً وقوة وحيوية، ويجعلانه حقيقة أبدية خالدة.[58]

إن هذه القيم التي تشكل العناصر الحيوية في النقد يتغافل عنها كثير ن النقاد المتأثرين بالرؤية الغربية في الفن –وخاصة مذهب الفن للفن– التي ترى أن قيمة الفن توجد في ممارستنا له، وليس فيما يقال عن تأثيره في السلوك، وهذا ما أكّده الأديب الإسلامي الكبير نجيب الكيلاني –رحمه الله– حين قال: "معظم النقاد الجماليين يزعمون أن المعايير الخلقية والدينية والفلسفية هي غير ذات مغزى تجاه قيمة العمل الفني، وإذا كان للمحتوى (المضمون) من أهمية فهي في حدود ما يساهم فيه في إطار الانطباع الجمالي العام".[59]

---

56 أكرم ضياء العمري: التراث والمعاصرة، الدوحة: كتاب الأمة، 1405هـ، ص129.

57 نظرات في الأدب، ص33.

58 المرجع نفسه، ص36.

59 مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص95-96.

والرؤية النقدية الإسلامية تؤكد دائماً أن الفن الصحيح هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود.[60]

وهي ترى أيضاً أن القيم هي مقياس الجمال في نظر المسلم، وأن الفكرة الجميلة هي عماد العمل الأدبي، وأن إلغاء مبدأ القيم من حقل الممارسة النقدية يعني السقوط في شراك المذاهب النقدية الغربية التي تحرص دائماً على إبعاد مبدأ القيمة عن العملية النقدية.[61]

ويرى الشيخ الندوي أن الجمال وقوة التأثير في العمل الأدبي الناجح يعودان إلى قوة العقيدة والعاطفة، والالتزام والإيجابية، فقد اتسمت بعض الكتابات العلمية والدينية لدى علمائنا القدماء بالجمال والبراعة والتأثير، والسبب الكبير في ذلك هو أنها قد كتبت عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع، وعن حماسة وعزم، فضلاً عن تحررها من السجع والبديع.[62] وهذا كله يؤكد الموقف الواضح من مسألة القيم الدينية والمبادئ الأخلاقية التي يجب أن يكون أثرها قوياً في النقد الإسلامي.

نظرات نقدية تطبيقية في الشعر والنثر

أ– في عالم الشعر

إن الكلمة لمن روح القدس كما يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي رحمه الله،[63] فهي حين تدخل إلى سويداء قلب الإنسان تحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة. وقد التزم الشيخ الندوي في حياته الحافلة في مجال الدعوة بقاعدة الجمع بين الإيمان والعمل والعلم،[64] وكان ينظر إلى الكلمة الطيبة –أو ما كان يسميه بالأدب الحي– بوصفها الروح الباعثة للحياة في جسم الأمة الإسلامية، وكانت نظرته الحضارية الإسلامية العميقة في فكره وثقافته هي مقياس التقويم لديه في كل شأن من الشؤون التي تهم المسلمين في هذا العصر.

---

60 محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، بيروت: دار الشروق، 1987م، ص6.

61 محمد إقبال عروي: "مقال في نقد النقد الإسلامي"، مجلة الأدب الإسلامي، العدد6، السنة2.

62 نظرات في الأدب، ص32.

63 شروط النهضة، ص24.

64 واضح الندوي: أدب الصحوة الإسلامية، ص69.

وقد تميز الشيخ بمواقف نقدية جريئة، ونظرات جديدة إلى الأدب، وخالف كثيراً من النقاد والدارسين الذين اعتادوا أن لا ينظروا إلى الأدب إلا من زاوية الصناعة والفن، ولا يعدونه –في الغالب الأحوال– إلا أداة تسلية أو آلة طرب، أو طريقة إظهار براعة، أو وسيلة تحقيق مآرب،[65] فالأدب عنده من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، والتأثير في النفس الإنسانية، والإسهام في بناء الحضارة.

ومن هذا المفهوم الإيجابي للأدب انطلق الشيخ في الدراسة والبحث عن هذا النوع من الأدب الحي في تاريخنا القديم والحديث، فعثر على نماذج رائعة في مجال النثر الفني كان يمكن أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين لأنها لم تدخل في رحاب الأدب المصنوع. وأما في مجال الشعر فقدم لنا نموذجين أثرا تأثيراً كبيراً في حياته كما يبدو. أما النموذج الأول فهو شعر جلال الدين الرومي، وهو يمثل الجانب التراثي، وأما الثاني فهو شعر محمد إقبال، وهو من الشعراء الذين عاصرهم وعرف الكثير عنهم. وقد كان للشيخ نظرات نقدية في دراسته لهذين النموذجين كشفت عن ملامح وأهداف إنسانية دقيقة لها قيمة كبيرة في الأدب سنقف عند بعضها في هذا العرض.

مع جلال الدين الرومي

1– الحب في شعر جلال الدين الرومي

إن الاهتمام بالتعبير الصادق عن الحب والعاطفة في الأدب، وبخاصة في الشعر قد جعل الشيخ الندوي يطلق حُكمَه النقدي السافر الذي يتجلى في أن الأدب إذا تجرد من العاطفة القوية كان محاكاة أو مضاهاة، فقوة العاطفة هي التي تضفي على الأدب القوة والخلود وصلاحية الانتشار والحلول في قرارة النفوس.[66]

والحب من الملامح الإنسانية الرائعة، وهو في تساميه وتجرده من الرغبات والأهواء البشرية قيمة تدل على الغنى والسمو والكرامة، وقد حفل شعر جلال الدين الرومي بالحديث عن الحب وعجائبه وتصرفاته وقيمته عند من يعرفه ويدرك معناه، وتبدو نظراته إلى هذه العاطفة الإنسانية –كما فصلها وحدد ملامحها

65 محمد الرابع الندوي: الأدب وصلته بالحياة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م، ص9.

66 نظرات في الأدب، ص108.

الشيخ الندوي- بكونه جالباً للمعجزات، وقاهراً للأسقام والعلات، ومنقذاً لأصحابه من بحر الحياة، وعالماً مأموناً من الآفات والعاهات.

فهو كما يقول الرومي: "يحول المرّ حلواً، والتراب تبراً، والكد صفاء، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة، ويسوّد العبد.[67]

وهذا الشعور قد لا يمر بنفوس الغارقين في عالم المادة، لأن ملكهم ودولتهم غير دولة الشاعر: "بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم، لا ننازعهم في شيء، أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول".[68]

والحب سفينة نجاة في بحر الحياة الهائج، فقد رأى شاعرنا أن كثيراً ممن لا يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجي، ولكننا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق".[69]

ويكشف الشيخ من هذا الشعر النابض بالمشاعر الملتهبة، والصور الدقيقة، عالم القلب الحي الفائض بالحياة والحرارة الذي لا بد أن يحتضن هذا الحب ليعيد للإنسان كرامته، أما العقول الباردة، والغرائز الفانية، فتعجز عن أداء هذه الوظيفة، فقد ذكر الرومي حديث القلب وماله من مكانة وكرمة في حياة الإنسان، وما يحويه من عجائب وكنوز، وذكر أن الإنسان يحمل في جسمه روضة أُكُلُها دائم، وربيعُها قائمٌ، وأنه يحمل في نفسه الصغيرة عالماً أوسع من هذا العالم المادي.[70]

2- قيمة الإنسان في شعر جلال الدين الرومي

هذه قضية كبيرة في الآداب العالمية اليوم، وهي تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام الأدباء والنقاد المدافعين عن كرامة الإنسان. ويرى الشيخ الندوي أن قضية التعبير عن قيمة الإنسان وشرفه جاءت بسبب ما أصيب به

---

67 المرجع نفسه، ص92.

68 نظرات في الأدب، ص93.

69 المرجع نفسه، ص94.

70 المرجع نفسه، ص97.

الإنسان من استهانة بقيمته من قبل الحكومات المستبدة، والفلسفات الخاطئة، والأديان المحرفة، وما نتج عن ذلك من فساد في المجتمع، ومقت شديد للحياة، وقنوط من المستقبل، ورغبة في الفناء. وقد نشأ عن ذلك أدب متشائم ينظر إلى العالم وإلى الحياة بمنظار أسود، وأصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته، ويعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية.[71]

وفي هذا المجتمع العاق والمتبرم من ابنه الشرعي الإنسان، قام جلال الدين الرومي ممثل الفكرة الإسلامية الصحيحة ليثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم، والشعر المتراجع المنهزم، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة حتى دبّ في المجتمع دبيب الحياة، أصبح الإنسان يشعر بكرامته وحقيقة وجوده، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى (الاعتزاز بالإنسانية).[72]

وقد اختار الشيخ الندوي من شعر الرومي نماذج رائعة عرضها في أسلوب جميل، تترجم نظرته الإيجابية إلى الإنسان، والذي يرى فيه خلاصة هذا الكون، ومجموع أوصاف العالم، وهوة غاية هذا الخلق، لأجله خلق العالم، وهو القطب الذي تدور حوله رحى الكون، تحسده الكائنات، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات، ودعاه إلى الاعتراف بقيمته، والاعتزاز بوجوده، وألا يبيع نفسه رخيصة إلا لأكرم المشترين، وهو الله تعالت قدرته.[73]

إن الأثر الإيجابي لهذه الأفكار في حياة الإنسان المؤمن بالله تمتد إلى آفاق عريضة، فشعوره أولاً بذاته وقيمة نفسه، ثم الاعتزاز بالانتساب إلى الله، والارتباط بكل ما في الوجود، يجعله يحيا عزيز النفس، عالي الرأي، أبياً للضيم، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والعدم والفراغ،[74] يشعر بأثره ورسالته في الحياة، وأنه يملك شيئاً ذا قيمة يمكن أن يقدمه للآخرين.

---

71 المرجع نفسه، ص99-100.

72 المرجع نفسه، ص100-101.

73 المرجع نفسه، ص101-103.

74 يوسف القرضاوي: قيمة الإنسان ووجوده في الإسلام، القاهرة: دار الوفاء، ص16.

وقفة مع إقبال

كان محمد إقبال –شاعر الإسلام– من أعظم رجال الفكر والدعوة والأدب في هذا العصر، فقد جمع في شخصيته بين الفكر الثاقب، والعلم الواسع، والقلب الواعي، والعقيدة القوية الصادقة، والرؤية الحضارية العميقة.[75]

وقد لا يوجد شاعر معاصر أثر تأثيراً كبيراً في الشيخ الندوي كما أثر إقبال، بل إن الشيخ نفسه يرى أنه ما من شاعر أو أديب أو كاتب في شبه القارة الهندية إلا وقد تأثر به في قليل أو كثير، وليس لأحد أن يدعي أنه قد تحرر من هذا الأثر، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه أو عكس اتجاهه تماماً، فكلّهم قد خضعوا له من حيث يشعرون، من حيث لا يشعرون.[76]

ويرى الشيخ أنه ما نال شاعر أوربي في اللغات الحية مثل اللغة الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، والفارسية، والعربية مثل هذا الاهتمام سواء في سيرته أو شاعريته أو مدرسته الفكرية كما نال إقبال، لا شكسبير Shake-peare ولا ميلتونMilton ، ولسبب في ذلك راجع إلى قوة شخصيته أولاً، وقوة العقيدة ثانياً، وقوة العاطفة ثالثاً.[77]

ويحلل الشيخ هذه العناصر التي منحت القوة والجاذبية والجمال لأدب إقبال فيرى أنها في قوة العقيدة عنده، هي إيمانه العميق بصلاحية الإسلام للخلود، وأنّه هو الرسالة الخاتمة المختارة التي تملك إنقاذ الإنسان من براثن الجاهلية، وعبادة الإنسان، وعبادة الشهوات والأوثان، ثم في إعجابه القوي بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الفلسفية الواسعة العميقة من التعبير الوجداني المتدفق عن حبه ومبادئه وآماله.

1– نظرة إقبال إلى الشعر والأدب

كان إقبال يعتقد أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب، فغاية الأدب أن يبعث في الذات القوة، ويثير فيها الحرارة والعشق والنزوع إلى عالم الروح، ويفيض على المجتمع

---

75 نجيب الكيلاني: إقبال الشاعر الثائر، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988م، ص21-22.

76 نظرات في الأدب، ص108.

77 المرجع نفسه، ص108.

الحياة والحماس وقد قال: "لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغن إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى".[78]

وكان إقبال ينفر بطبعه من الأدب والفن الذي تكون غايته الأولى المتعة والتسلية وقت الوقت، يقول:[79]

الدين والفن والتدبير والخطب   والشعر والنثر والتحرير والكتبُ

إن تحفظ (الذات) هذي فالحياة بها   أو لم تطق ذاك فهي السحر والكذب

وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفن وسيلة لفهم حقائق الحياة، وهو رسالة عظيمة في الحياة، يقول:[80]

الشعر فيه من الحياة رسالة   أبدية لا تقبل التبديلا

إن كان من جبريل فيه نغمة   أو كان فيه نفخ إسرافيلا

ويرى الشيخ الندوي أن نظرة إقبال هذه إلى الشعر والأدب كانت في الحقيقة ثورة في تاريخ الأدب وفي تاريخ الشعر، وذلك بما أحدثه من تأثير عميق في الأدب الحديث، وبما قام به من تأثير في بلورة مدرسة جديدة في الشعر والأدب في شبه القارة الهندية.[81]

---

78 أبوالحسن الندوي: روائع إقبال، لكهنو (الهند): المجتمع الإسلامي، ندوة العلماء، ص74.

79 نجيب الكيلاني: إقبال الشاعر الثائر، ص79.

80 المرجع نفسه، ص84.

81 نظرات في الأدب، ص106.

2- الرؤية الحضارية في شعره

كان إقبال -كما ذكر سابقاً- يؤمن إيماناً عميقاً بصلاحية الإسلامي للخلود، وبقدرته على حل مشكلات الإنسانية، وقد انعكست هذه الرؤية الواضحة في شعره، يقول:[82]

كم أصاب الإنسان في هذه الأرض من اسكندر ومن جنكيز

ويقول التاريخ في كل عصر خطر فرط قوة لعزيز

وهي سم بغير دين، وبالدين دواء لكل سم نجيز

وعن هذه الرؤية الواضحة يقول الشيخ الندوي: "إن محمد إقبال له فضل كبير في أنه استخدم شاعريته الموهوبة السليقية لصالح الإنسانية، واستخدمها لصالح الإسلام، إنه كان يستطيع أن يتصدّر دست الأدباء والشعراء فيسلمون له الزعامة والرئاسة، وقد نال ذلك كثير من إخوانه المعاصرين، ولكنه أبى إلا أن ستخدم كل شاعريته، وكل مواهبه الشعرية والأدبية لخدمة الإسلام والإنسانية، فأعاد بذلك الإيمان والثقة بالإسلام والحب للرسولصلى الله عليه وسلم".[83]

وكان إقبال يعتقد أن البعث الإسلامي القادم سيكون على أيدي المسلمين المؤمنين بمبادئهم وقيمهم، العاملين في ميادين الحضارة والعلم والكفاح بهمة وعزم ونشاط.

ولقد كان إقبال كما يرى الشيخ الندوي النموذج الطيب لقيادة حركة البعث الإسلامي بشعره الإسلامي البليغ، ورؤيته الحضارية الواضحة، وهو النموذج الذي ينبغي أن يرزق العالم العربي بمثله للقيام بدور القيادة والثورة في عالم الأدب والشعر.

ب- في مجال النثر

صفحات من النثر الفني

---

82 إقبال الشاعر الثائر، ص128.

83 نظرات في الآداب، ص112.

تجلى الإبداع النقدي عند الشخ الندوي في اكتشافه لصفحات مشرقة رائعة من النثر في الإبداع العربي، هذه الصفحات التي غفل عنها النقاد ودراسو الأدب لقصور نظرتهم، وضيق فهمهم، وذلك بعنايتهم بالأدب الصناعي المنمق الموجود في دواوين الشعراء وكتب الرسائل والمقامات وغيرها من أنواع الأدب الذي يتخذ في الغالب صناعة وحرفة.

وقد استعرض الشيخ مكتبة الأدب العربي من جديد، فلاحظ أن هناك نوعاً من الأدب النثري الطبعي الجميل لم يحظ بدراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم مثل ما حظي به الأدب الصناعي، مع أنه يملك خصائص كثيرة منها: الكثرة، وفضل السبق، وعبقرية اللغة العربية وأسرارها، والبعد عن الصناعة التكلف.[84] ويتجسد هذا الأدب على وجه الخصوص في كتب الحديث والسيرة وفي بعض الكتب العلمية والدينية، وفي كتب الطبقات والتراجم والرحلات.

ويرى الشيخ أن هذا الأدب ثورة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة،[85] وذلك بما يمتاز به هذا الأدب من خصائص فكرة وجمالية تفتق القريحة، وتنشط الذهن، وتقوي الذوق السليم، وتعلم الكتابة الحقيقية.

والسر في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وقوته وجمالها ليس في التحرر من الصناعة التكلف فحسب، بل في كونها كتبت عن التزام وإيمان بالعقيدة، وعن عاطفة متدفقة بالحماس والعزم. لقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لأنفسهم لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم ويفيض خواطرهم وتتحرق قلوبهم، فتنهال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من القلب فلا تستقر إلا في القلب.[86]

ويقدم الشيخ الندوي أدلة تطبيقية كثيرة على رأيه، فيذكر نصوصاً من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والمعاجم، ثم يقف منها وقفات نقدية دقيقة ليكشف عن أسرار الجمال والإبداع فيها في ميزان الرؤية الإسلامية في الأدب والفن.

---

84 المرجع نفسه، ص22.

85 المرجع نفسه، ص34.

86 المرجع نفسه، ص32.

وقد قام الشيخ بمراجعات نقدية رائعة لأدب التراجم والتقديمات وأدب الرحلات، أضافت الكثير من العناصر التأصيلية إلى النقد الإسلامي، الذي يسعى إلى بلورة نظرية متكاملة في النقد تقف في وجه النظريات الغربية الوافدة.

الآفاق العالمية للأدب والنقد الإسلاميين

عرف الشيخ الندوي -وهو الأديب الإسلامي العالمي- بأفقه الواسع، ونظرته العالمية إلى الأدب والنقد الإسلاميين، وقد ترجمت جهوده في دراسات وأبحاث ومحاضرات امتدت لأكثر من خمسين سنة، وقام بتأسيس رابطة عالمية تُعنَى بشؤون الأدب الإسلامي إبداعاً ودراسة ونقداً، وهي أول رابطة تجمع الأدباء والباحثين الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم لإعادة الأدب والنقد إلى الدائرة الإسلامية، وبلورة النظريات وفق الرؤية المنبثقة من كتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وسلم.

وقد عرض الشيخ في بعض كتبه جوانب مشرقة عن المدرسة الأدبية الإسلامية في الهند، وهي مدرسة حافظت على أصالتها الإسلامية، ومشاعرها الدينية، وعبرت عن القضايا الإسلامية المختلفة باللغة الأردية والفارسية، مما يؤكد العالمية التي يسير نحوها الأدب الإسلامي، على الرغم من الاختلافات القومية والعرقية التي حاول الاستعمار الغربي غرسها في النفوس، لتترسب الأنانية والفرقة بين أبناء الأمة الواحدة.

إن تأثر الشيخ وإيمانه الكبير بالإسلام ومبادئه وحضارته المتميزة، وحبه الكبير لشاعر الإسلامي محمد إقبال الذي علمه الطموح والحب والإيمان،[87] جعله ينظر إلى الفكر الإسلامي بالدرجة الأولى، وإلى الأدب الإسلامي ونقده اللذين هما وليدا هذا الفكر، برؤية إنسانية واسعة، وبأفق إسلامي عالمي، تجتمع فيه الإنسانية، وقيم الحق والخير والجمال، بعد التحرر التام من جميع النزعات الوطنية والقومية والأقلية الضيقة.

الخاتمة

يعد الشيخ أبو الحسن الندوي -حفظه الله- أحد الرواد الأوائل الذين أسهموا في بلورة المشروع الحضاري الإسلامي وتأسيسه في النصف الثاني من هذا القرن، فشارك في مسيرته بفكر عميق، ورأي سديد،

---

[87] نظرات في الأدب الإسلامي، ص82.

وعزيمة ماضية، في تزويد هذا المشروع الحضاري بالأدب الحي الذي يبعث الحماس والحيوية والفاعلية في الأمة.

وقد دأب الشيخ على الدعوة إلى بناء أدب إسلامي متميز وتشكيله، ليقف في وجه الأدب المنحرف الذي أصبح معادياً للقيم، ومجانباً للأخلاق، ومثبطاً للهمم، وحدد الشيخ الأطر العامة لهذا الأدب الذي لا بد أن ينطلق من الرؤية الإسلامية، ويعبر عن المشاعر والأفكار بصدق وإخلاص حتى يحقق غايته من التأثير والإقناع.

واهتم الشيخ بالنقد ودعا إلى تأصيله وبلورة نظرياته، ليؤدي وظيفته في حراسة القيم والمبادئ والأخلاق، ويحفظ المجتمع الإسلامي من التحديات والهجمات العلمانية الهادفة إلى قتل الروح الدينية لدى الأمة، وعزل شبابها عن الإيمان والقيم والمبادئ التي تميزهم إسلامياً وحضارياً.

وقد كانت له نظرات نقدية جديدة في الأدب فتحت أبواباً أمام الدارسين، ولفتت أنظارهم إلى الكثير من القضايا والمقاييس والقواعد في الأدب الإسلامي ونقده.

ويمثل الشيخ الندوي –وهو من رواد الأدب الإسلامي الأوائل– النموذج الحي في مسيرة أسلمة الأدب الإسلامي وتأصيله في النصف الثاني من هذا القرن، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجازي به عبادَه المؤمنين المجاهدين.